العلاقة بين علماء السلطان و طغاة النظام في الشام (2)
الكاتب : محمد حمادة
التاريخ : 31 إبريل 2014 م
المشاهدات : 6058

بسم الله، الحمدلله، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم:

إن المؤسسات الثلاثة: الطلائع _الشبيبة _الاتحاد الوطني لطلبة سوريا، إنما كانت وظيفتها الأولى و الأخيرة غسل دماغ شعبنا بصديد الإلحاد والتطرف والتشويه والتزوير والافتراء على ديننا و نبينا وكتاب ربنا وتاريخنا، وتاريخنا ورموزنا في شتى المراحل والمستويات.

وما يواكب ذلك من اختلاط ماجن, وتشجيع على التحرش الجنسي, ودعوة للتبرج, وتبرم من الحجاب, وتسفيه لصلاحية الإسلام لكل زمان و مكان, وتشكيك في الثوابت, ومحاولة عنيدة في سبيل تحطيم المقدس عند كافة شرائح جماهيرنا, كل ذلك في مقابل تقديم الثقافة الغربية التي زحفت على مجتمعات المسلمين وإسلامهم مع حقبة الاستعمار البغيض على أنها بديل الخلاص لأمتنا! وتسريع ذلك الزحف, إلى غير ما ذكرنا من مفاسد واعتداءات لا تخفى على ذي لب، ولا يغمض العين عنها إلا من طمس الله نور بصره وبصيرته معا!

هذه الحقيقة عشناها لحظة بلحظة وسآتي بعونه تعالى بشهادتي الشخصية عليها في سطور هذا المقال القادمة.

كما أن وجود علماء سوء تتقرب من سلاطين الجور زلفى, ليست بدعا من تاريخ أمتنا المجيد, لكنها جزء من كل نقطة سوداء في ذاك التاريخ المضيء, كما أنني لست أول من أعلن عنها وإنما القرآن الكريم والسنة المشرفة والتاريخ كل ذلك تكفل بإبرازها والتحذير من مخاطرها, فهي مرض لم يخل منه عصر إلا أن خطره استشرى بقوة في هذا المنعطف القاسي من تاريخ أمتنا, لهذا وجدنا العلماء العاملين, والفقهاء المخلصين, والدعاة الغيورين يقتدون بمنهج الكتاب والسنة و في

مقدمة من أجاد التوصيف,و وفق في التحذير الإمام الجرجاني من علماء القرن الرابع الهجري (325_392)

حيث وصف حال الفريقين وصفا دقيقا لم أجده بمثله لغيره.

يقول الإمام الجرجاني أبو الحسن رحمه الله تعالى:

يَقُولـونَ لِيْ فِيْكَ انْقِبَـاضٌ وَإِنَّمـا
رَأَوا رَجلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا
أَرَى النَّاسَ مَن دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهمْ
وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَـا
وَلَمْ أَقْضِ حَـقَّ العِلْمِ إِنْ كنت كُلَّمَـا
بَدَا طَمَـعٌ صَيَّرْتُهُ لِيَ سُلَّـمَا
وما زلتُ مُنحـازًا بعرضـي جانبـا
عن الذل أعتَدُّ الصيانةَ مَغنَـما
إذا قِيلَ: هـذا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَـدْ أَرَى
وَلَكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا
أنزهـها عن بعض ما لا يشينـها
مخافةَ أقوالِ العِـدا فيمَ أو لما؟
فأُصبحُ عن عيْب اللـئيم مُسَلَّمـا
وقد رحتُ في نفسِ الكريم معظَّما
وإنِّـي إذا مـا فاتني الأمـرُ لـمْ أبِتْ
أقلب كفِّـي إثـره متـندما
ولكـنه إنْ جـاء عـَفْـوا قبـلته
وإن مـال لم أتبعه هـلَّا وليتما
وأقبض خَطْـوي عن حظـوظٍ كثيـرةٍ
إذا لم أنلها وافرَ العِرض مُكْرَما
وأُكـرِمُ نفسيَ أن أُضـاحِك عابسًا
وأن أتلقَّـى بالمـديح مُذَمَّما
وكم طـالبٍ رقِّـي بنُعْمـاه لم يصل
إليه وإن كان الرئيسَ المعَظّما
وكم نعمةٍ كانت على الحُـر نقمـةً
وكم مغنمٍ يعتَدُّه الحرُّ مَغرما
ولم أبتذِل في خدمة العلـم مهجتي
لأخدِمَ من لاقيت لكن لأُخْدَما
أأشقـى به غَرْسًـا وأجنـيه ذِلـةً
إذا فاتباعُ الجهلِ قد كان أحزَما

وإني لــراضٍ عـن فتًــى متعـــففٍ

يروح ويغدو ليس يملك درهـمًا

يبيتُ يراعِـي النجـمَ من سوءِ حالِه

ويصبحُ طَـلْقا ضـاحكا متبسما

ولا يســأل المُثْــرين ما بأكـفِّــهم

ولو ماتَ جُوعا عِفَّــةً وتكــرُّما

فإن قلت: "زَنــدُ العِلمِ كابٍ"،فإنمــا

كبا حين لم نَحرُسْ حِماهُ وأظلَما

ولو أنّ أهـــلَ العلـمِ صــانوه صانهم

ولو عظَّموه في النفوسِ لعظما

ولكن أهــانوهُ فهــانوا ودنَّســــــوا

مُحَيَّــاهُ بالأطماع حتى تجَـهَّما

وما كل بــرقٍ لاحَ لـــي يستفِزني

ولا كل مَن لاقَيتُ أرضاه مُنعِما

ولكن إذا ما اضــطرني الضُّــر لم أبت

أقلبُ فكـري مُنْجِدًا ثم مُتْهِما

إلى أن أرى مــا لا أَغَـــصُّ بذِكْــره

إذا قلتُ قد أسْدى إليَّ وأنعَما

قال التاج السبكي رحمه الله تعالى، بعد أن أورد هذه القصيدة الفائقة العصماء في ترجمة الجرجاني: "لله هذا الشعر ما أبلغه وأصنعه! وما أعلى على هام الجوزاء موضعه! وما أنفعه لو سمعه من سمعه!..."

هذه الأبيات الرائعة تختصر لنا صنفي علماء الإسلام وعلماء السلطان, وأننا لسنا من صنفناهم على خلفية تصفية حسابات سياسية, لكنهما وجهان مختلفان: أحدهما أخلص العمل لوجه ربه الأعلى, و أحسن الظن بوعده, و ارتعد قلبه من وعيده, يرجو رحمته ويخشى عذابه, يدعوه رغبا ورهبا, ولا تأخذه في جلال رب العزة لوم أو عتاب, ولا ترهبه الدنيا لو أطبقت عليه, كما لا يسيل لعابه لما يقدمه له الأعداء من شهوة محرمة أو إغراء.

والآخر طامع في الحياة, باحث عن فرصة دنيا أو ظهور, غافل عن وعد الله معرض عن وعيده, ذليل هان عليه أمر دينه, بعد أن صارت الدنيا أكبر همه, ومبلغ علمه, وبعد أن صار الدين وسيلته التي ضرب منها جسرا لبلوغ زخارف فانية من حطامها!

فهذان الوجهان يحكيان لنا فريقين متناقضين في كل شيء ولو كانا يحملان العنوان الإسلامي ذاته!

ركز معي في كلام الجرجاني و هو يقول:

أرى الناس من داناهم هان عندهم

ومن أكرمته عزة النفس أكرما

تجد قولا فصلا في الطائفتين. وفي قوله:

ولم أقض حق العلم إن كنت كلما

بدا طمع صيرته لي سلما

وقوله: وكم نعمة كانت على الحر نقمة

وقوله: أأشقى به غرسا و أجنيه ذلة؟! _يشير إلى العلم_ إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما

وقوله: ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... وقوله: ولكن أهانوه فهانوا

وقوله: وما كل برق لاح يستفزني ... ولا كل من لاقيت أرضاه منعما

عند هذه النقطة ننتهي من الجزء الأول من هذا المبحث على أمل اللقاء بكم في الأجزاء الأخرى منه

راجيا من المولى عز و جل أن لا تحرموني من دعوة صالحة في ظهر الغيب, ومن ملحوظة بناءة, وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين في انتظار الجزء الثالث بإذنه تعالى.

المصادر: